الاثنين 23/7/2012 6/رمضان/1433 الشيخ الطبيب محمد خير الشعَّال

الأربعون النووية

الإحسان (2)

عن عُمرَ رَضِي اللهُ عَنْهُ قالَ: بَينَما نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذاتَ يَوْمٍ إذْ طلَعَ عَلَيْنا رَجُلٌ شَديدُ بَياضِ الثِّيابِ، شَديدُ سَوادِ الشَّعْرِ، لا يُرى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حتَّى جَلَسَ إلى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إلى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ على فَخِذَيْهِ؛ قالَ: يا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنِ الإسْلامِ؟ فَقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً)).

قالَ: صَدَقْتَ. قالَ: فَعَجِبْنا لَهُ، يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإيمانِ؟ قالَ: ((أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)).

قالَ: صَدَقْتَ. قالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإحسانِ؟ قالَ: ((أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)).

قالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعةِ؟ قالَ: ((مَا الْمَسْؤُولُ عَنْها بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ)).

قالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِها؟ قالَ: ((أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ، يَتَطاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ)) قالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ، فَلَبِثْتُ مَلِيًّا.ثُمَّ قالَ لي: ((يا عُمَرُ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ)) قُلتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قالَ: ((فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ))، [رواه مسلمٌ].

هذا الحديث له شوطر أربعة: الإسلام، والإيمان، والإحسان، وبعض علامات الساعة.

والعلماء قالوا: إن هذا الحديث أُمُّ السنة؛ لأنه تحدث عن رؤوس سُنَّةِ النبي صلى الله عليه وسلم.

(**أُمُّ كل شيء: أصله**) لذلك يقال للأرض: هي أُمُّنَا؛ لأن الله أخرجنا منها، وقالوا عن سورة الفاتحة: أُمُّ الكتاب؛ لأن أصول القرآن الكريم موجودة فيها.

وهو حديث متواتر فقد رواه كثير من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم.

قـالَ: فَـأَخْبِرْنِي عَنِ الإحسـانِ؟ قـالَ: ((**أَنْ تَعْبُـدَ اللهَ كَأَنَّـكَ تَرَاهُ، فَـإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّـهُ يَرَاكَ**)).

أهل التربية الروحية أنشؤوا مدارس عديدة في هذه الكلمة (**الإحسان**).

نحن نعلم أن المتخصصين بتفسير القرآن يُسَمَّونَ المفسرين، والمتخصصين بالمادة الفقهية يُسَمَّونَ فقهاء، والمتخصصين بعلم التوحيد يُسَمَّونَ العَقَدِيِّين (أهل العقيدة)، والمختصين باللغة العربية يُسَمَّونَ باللغويين.

المتخصصين بالأخلاق (تربية الروح) يُسَمَّونَ في أحد من اصطلاحاتهم (أهل التصوف) وهم أساتذة التربية الروحية وقد أنشئوا مدارس من أجل أن يُرَبُّوا المرِيْدَ (التلميذ الذي يسلك في الدرب للوصول إلى الله) وسمي مريداً لأنه يريد أن يصل إلى حضرة الله تعالى ليصل إلى رتبة الإحسان، وعندهم مرتبة تسمى مرتبة (المراقبة) وهي أن تشعر بكل خلية من خلاياك في كل لحظة من لحظاتك أن الله يراقبك، **وإذا وصل المرء إلى هذه الرتبة ما عصى الله عز وجل إلا القدر المكتوب عليه.**

إذ كان موظفاً يريد أن يأخذ رشوة يشعر بأن مديره يراقبه أو هيئة الرقابة تراقبه ينتظر حتى تذهب هيئة الرقابة وبعدها يأخذ رشوة، الآن العبد إذا وصل إلى حال المراقبة فيشعر أن الله يراقبه وكان موظفاً لا يقدر أن يأخذ رشوة.

مرة في أحد الأحياء كانوا يريدون افتتاح حديقتين قريبتين من بعضهما المسؤول الذي يريد أن يفتتحهما هو المحافظ المسؤول عن شؤون الزراعة أراد أن يُظهر اهتمامه بهذه الحديقة للمحافظ فجاء بورود نوعيتها عالية جداً وغرسها في أماكن محددة في هذه الحديقة فلما أتى المحافظ وألقى نظرة في الحديقة أعجبه ذلك المنظر فلما انتهى المحافظ من جولته أجلسوه في أحد البيوت وقدموا له شيئاً من الضيافة فبينما هو يتناول ضيافته ذهبوا وقلعوا الورود من الأرض ونقلوها إلى الحديقة الثانية حتى يرى المحافظ أنهم يعتنون بما أُمروا به، فهؤلاء غير موقنين أن الله يراهم ولو تأكدوا بأن الله يراهم ما فعلوا هذا.

بنت محجبة تعرفت على شاب بطريقة غير مشروعة وعدها ووعدته واستغلت غفلة أبيها عنها ومضت بموعد مع هذا الشاب فهذه متأكدة بأن الله لا يراها ولا يسمعها أو أنه نائم جل جلال الله ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ ، [البقرة: 255] لأنها لو عرفت أن الله حاضر لما فعلت هذا.

فأهل التربية الروحية أنشؤوا مدارس من أجل هذه الرتبة اسمها رتبة الإحسان من أجل أن يوصل المريد إلى مرحلة المراقبة أن تراقب الله في كل حركة من حركاتك وفي كل سَكَنَةٍ من سكناتك وأفضل عبد وصل إلى هذه الرتبة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فإن أردتم أن تعرفوا حال سيدنا محمد لمعرفته لله ومراقبته له فاسمعوا إلى هذا الدعاء فالدعاء هو انعكاس لما في داخل الإنسان، ((**اللهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**))، [أبو داود].

لو أن طالباً لديه فحص في الثانوية العامة غداً وهو طالب مجتهد وطوال السنة يدرس وقلنا له ادعوا لنا ترى كل دعائه عن النجاح والتوفيق، فلو أن واحداً منا كان جالساً ولا يعرف هذا الطالب وسمع دعاءه فسيقول لك: الله أعلم هذا طالب لديه فحص، فمن دعائه عرفت ما بداخله، ولو أن إنساناً مريضاً وقلت له: ادعوا لنا، ترى دعاءه يتوجه نحو العافية والشفاء.

النبي صلى الله عليه وسلم وصلت مراقبته لله تعالى إلى طرفة العين.

فالعبد منا يلتفت إلى الله تعالى فقط في أيام الحج وباقي العُمُرِ غافل عن الله، وهناك عبد أفضل منه يلتفت إلى الله في كل سنة في شهر رمضان باقي العام منصرف عن الله، وعبد أفضل منه يلتفت كل أسبوع يوم وهو يوم الجمعة، وعبد أفضل منه يلتفت إلى الله في اليوم خمس مرات في الصلاة لكن باقي الأوقات غافل. فمثلاً يأخذ رشوة ويصلي هذا يلتفت إلى الله فقط وقت الصلاة، أحدهم يغش ويصلي.

كنت عند أحد الأشخاص وكتبت على ورقة، ثم أردت أن أجمعها بورقة أخرى وكان لديه دبابيس أخذت أحد الدبابيس فإذا بالدبوس لا يثقب الورقة فأخذ يضحك قلت لما تضحك قال: هذا الدبوس لا يشك مغشوش. هؤلاء التجار الذين يأتون بدبابيس مغشوشة وساعات ومسجلات... كلها مغشوشة هذا لا يراقب رب العالمين، فقط في صلاته، هناك أناس يلتفت إلى ربه في كل ساعة، الأفضل في كل دقيقة، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وصل إلى طرفة العين.

يُذكر عن الإمام الجنيد أنه كان له خال اسمه السُرِّيْ السُّقْطِي وهو من كبار الصالحين فقال للجنيد وهو غلام صغير: قل في كل يوم عشر مرات: (**الله شاهدي الله ناظري الله مُطَّلع علي**)،

وراقب معناها فكان الولد يقولها، بعد فترة قال له: يا ولدي قلها في كل يوم عشرون مرة، بعد فترة قلها مئة مرة فكان يقولها جاء في أحد الأيام إلى خاله وقال: يا خالي أنا أقول هذه الجملة التي أوصيتني بها، قال: يا ولدي إذا كان الله شاهدك والله ينظر إليك والله ناظر إليك فكيف تعصيه؟!

أنت اجعل لنفسك ورد عشر مرات (الله شاهدي الله ناظري الله مطلع علي).

شاب دخل أبوه في العناية المشددة –وأبوه ثري–، وسوس إبليس في عقل الولد أمراً بأن والده سيموت وسيرث إرثا كبيراً وهناك طريقة يأخذ بها مبلغاً يستأثر به لنفسه ففكر أن يجعل عقد بيع لعقار من عقارات أبيه باعه الأب لابنه وبتاريخ قديم فأحضر عقداً وأتى بشهودٍ زُوْرٍ وقَّعهم عليه، وذهب لأبيه في العناية المشددة وفي غفلة من أخوته والأب بين الحياة والموت أمسك بأصبع أبيه وختم على الورقة، هذا لو أن عنده وِرْدٌ (الله شاهدي، الله ناظري، الله مطلع علي) لم يفعل هذا، لو أنه يعبد الله كأنه يراه فأن لم تكن تراه فأنه يراك لكن هو يعتقد بأن الله عز وجل لا يراه ولم يسمع ما خطط.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُكَلِّمُهُ وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ، مَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:** ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾، [المجادلة: 1] **إِلَى آخِرِ الْآيَةِ** [الإمام أحمد وابن ماجه].

((أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)).

هل أن هناك عمليات غش في غرفة عمليات القلب المفتوح؟! تخيل أن هناك غش في المواد كؤوس، مسجلات، ثياب، طعام.. أما في غرفة القلب المفتوح!

أحياناً يحتاج الأطباء في غرفة العمليات إلى توسيع الشرايين، فيضعون شبكاتٍ وأنواعاً وأسعاراً متفاوتة، فإذا وضع الطبيب شبكةً من النوع الرديء أو الجيد فالمريض لا يعرف، تخيل أن بعض الشبكات عمرها فقط ستة أشهر بعدها يجب على المريض أن يدخل غرفة العمليات مرة ثانية، على الرغم من اتفاق المريض مع الطبيب أن يضع له أفضل الشبكات لكن الطبيب وضع أسوأ شيء!!

هذا مقام الإحسان هو المقام الذي يجعلك تسير على الصراط المستقيم.

كيف للإنسان أن يصل إلى مقام الإحسان؟

عَنْ أم سَلَمَةَ رَضِي اللهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم: **كَانَ فِي بَيْتِهَا ، فَدَعَا وَصِيفَةً لَهُ ، أَوْ لَهَا فَأَبْطَأَتْ، فَاسْتَبَانَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ. فَقَامَتْ أم سَلَمَةَ إِلى الْحِجَابِ فَوَجَدَتِ الوَصِيفَةَ تَلْعَبُ، وَمَعَهُ وَاكٌ، فَقَالَ:** ((**لَوْلا خَشْيَةُ الْقَوَدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لأَوْجَعْتُكِ بِهَذَا السِّوَاكِ**))، [الطبراني].

لكنه صلى الله عليه وسلم يخاف من الله عز وجل وهذا حال المراقبة مع الله عز وجل.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: **غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَزْوَةَ نَجْدٍ فَلَمَّا أَدْرَكَتْهُ الْقَائِلَةُ وَهُوَ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ فَنَزَلَ تَحْتَ شَجَرَةٍ وَاسْتَظَلَّ بِهَا وَعَلَّقَ سَيْفَهُ فَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الشَّجَرِ يَسْتَظِلُّونَ وَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ دَعَانَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجِئْنَا فَإِذَا أَعْرَابِيٌّ قَاعِدٌ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ:** ((**إِنَّ هَذَا أَتَانِي وَأَنَا نَائِمٌ فَاخْتَرَطَ سَيْفِي فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِي مُخْتَرِطٌ صَلْتًا قَالَ مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي قُلْتُ اللَّهُ فَشَامَهُ ثُمَّ قَعَدَ فَهُوَ هَذَا**)) **قَالَ: وَلَمْ يُعَاقِبْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، [البخاري ومسلم].

تصور لو كانت هذه الحادثة معك من يمنعك؟

نحن في هذه الأزمة تقول: من يحل هذه المشاكل؟كيف يصل كل منا إلى حال المراقبة؟

أنا أراقب الله في كل حركاتي وسكناتي علاقتي في أسرتي وعملي محافظتي على عبادتي. فالصائم من يمنعه من الطعام والشراب، هذا هو حال المراقبة مع أن بإمكانك أن تدخل إلى غرفتك تأكل.

عندما كنا صغاراً صمنا رمضان في تموز وكان أبي يحفزنا من يصوم يأخذ خمس ليرات، كنا نصوم لكن نخرج خارج البيت ونشرب نحن أطفال، الصيام من يضبطه؟

ترى أناساً يُخرِجون الزكاة في وقتها وأكثر فمن يضبط أمورك المالية؟

أحدهم يتفق هو وزوجته -قبل أن يَمْضِيَ على البضاعة حَوْلٌ- فيقول: وهبتُكِ البضاعة، فعندها لا يدفع الزكاة، الآن زوجته عندما يدخل في مِلْكِهَا لا تدفع الزكاة حتى يمضي عليها الحَوْلُ، وقبل أن تمضي السنة تقول له: وهبتُك، يقول لك يا أخي التجارة شطارة!!

كيف يصل أحدُنا إلى مرتبة تعبد الله كأنك تراه فإن لم يكن تراه فإنه يراك؟

1- مطلوب منك أن تكثر من ذكر الله، فمن أكثر من ذكر شيء أحبه ومن أكثر من شيء غلب عليه.

أناس وهم نائمون يذكرون الله تقول له زوجته: **كيف تقول الله أو لا إله إلا الله؟** أكْثَرَ من ذكر شيء في اليقظة فكان أنيسه حتى في نومه.

2- العلم: من يأتي بأشياء مغشوشة ومن يضع للمريض القلب شبكة مغشوشة عنده جهل، صحيح هو طبيب لكن جاهل بحضرة الله والعلم يساعدك للوصول إلى مرتبة الإحسان.

قالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعةِ؟ قالَ: ((مَا الْمَسْؤُولُ عَنْها بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ)).

من أجل هذا تجدون أحياناً في الأسواق كتباً صغيرة أن يوم القيامة في كذا، كل هذا الكلام غير صادق فسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أعلم الخلق وقد سئل متى الساعة قال: لا أعلم.

قالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا؟

قال العلماء: أمارات الساعة ثلاثة:

1- علامات صغرى.

2- علامات وسطى.

3- علامات كبرى.

علامات الساعة الصغرى كلها ظهرت في هذا الحديث.

والوسطى أغلبها ظهرت، معنى هذا أن تستعد لهذه الساعة فمن لم يكتب وصيته فليفعل وإذا كان للناس حقوق عليك فليَدْفَعْهَا أو ليُشْهِرَ بها لمن وراءه فلا يدري أحدنا متى تقوم ساعته هذه من العلامات الوسطى.

قالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا؟ قالَ: ((أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا)).

له معنيان الأمة (العبدة) أي يتزوج الرجل الحر امرأة عبدةً فينجب منها ولداً يكون هذا الولد حراً أو البنت حرةً فالبنت تكون سيدة على هذه المرأة.

ومعنى مجازي: أن تلد الأمة ربَّتها أن تصير البنت آمرةً ناهيةً على أمهَّا، البنت هي السيدة، والأم هي خادمة على ابنتها.

((وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ، يَتَطاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ)).

رعاء الشاء: الناس البسطاء.

هذا الحديث له إعجاز علمي عندما يتطاولون، ما قال يبنون بل يتطاولون، فِعْلٌ يحملُ معنى المشاركة، يعني أنت تبني عمارة بعلو خمس طوابق فهو يبني ستة، أنت تبني برجاً مئة طابق وأنا أبني برجاً مئة وعشرين، أصبح أناس يتطاولون أي يتنافسون أي برج أكبر برج ماليزيا أم برج دبي في البنيان.

في زمن النبي صلى الله عليه وسلم البيت في اللغة العربية الغرفة الذي إذا وقفت خرج رأسك خارج البيت، أي ارتفاع الجدار متر ونصف بحيث إذا مر أحدٌ أمام البيت يرى رأسك، فإذا كان السقف فوق رأسك اسمه سقف، فنحن كلنا نسكن قصور، ففي زمن النبي صلى الله عليه وسلم كان الصحابة يسكنون ببيوت، أناس معدودة الذين عندهم قصور، في زمن النبي كان هناك بيت طابقان لكن نادر جدا فالتطاول في البنيان حدثنا عنه النبي صلى الله عليه وسلم.

قالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ، فَلَبِثْتُ مَلِيًّا.ثُمَّ قالَ لي: ((**يا عُمَرُ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ**)) **قُلتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قالَ:** ((**فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**)).

فالملائكة لها قدرة أن تتشكل على هيئة إنسان، **سيدنا جبريل كان يأتي على شكل هيئات:**

أ. إما بصورته الملكية الحقيقة وقد رآه النبي صلى الله عليه وسلم مرتين.

ب. وإما أن يسمع النبي صوتاً ولا يراه.

ت. وإما أن يأتيه بصورة صحابي وكان يأتي على صورة سيدنا دحية الكلبي ويقال أن هذا الصحابي كان جميلاً، فالله أعطى الملائكة القدرة على التشكل.

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

والحمد لله رب العالمين.